الفصل الخامس

حول السياسة والنبوءة: تحالف اليمين المناصر لإسرائيل

Of Politics and Prophecy: The Alliance of the Pro-Israel Right

تقع بلدة معاليه أدوميم على إحدى التلال في الضفة الغربية وتبعد سبعة كيلومترات إلى الشرق من مدينة القدس، وكانت فيما مضى قاعدة أمامية لقوات الدفاع الإسرائيلية بوصفها محاطة بصحراء يهودا من جهاتها الأربع، لكنها تعدّ الآن ثالث أكبر مستوطنة في الأراضي المحتلة، إذ يبلغ عدد سكانها ما يقارب ٤٠ ألف نسمة. وتصطف أشجار الزيتون على طول الطريق السريع رقم ١-الرابط الرئيس بين المدينة المقدسة ومدينة تل أبيب-الذي يمتد عبر عدد من الأحياء السكنية، ومراكز التسوق، والمشاريع التجارية. وعلى الرغم من مظهر المدينة الحديث، إلاّ أنَّ جذورها التاريخية عميقة، حيث تبرز من أودية البلدة القديمة قصص دينية حيكت في نسيج التقاليد اليهودية والمسيحية على نحو معقّد. ويصفها كِتاب يشوع-الذي اشتَقَّت معاليه أدوميم اسمها منه-على أنها الحد السابق بين قبيلتي بنيامين ويهوذا اللتين ظلَّتا مواليتين لأسرة داوود

بعد انقسام إسرائيل إثـر موت الملك سليمان، كما كانت الموقـع لأحـداث قصة "السامري الصالح" كحكاية رمزية من نسخة لوقا لكتاب العهد الجديد.

وتشكّل المدينة التي شهدت ظهور هذه الأحداث الدينية، والتي يعدها الكثيرون أرضاً مقدّسة، شرخاً سياسياً لفترة طويلة من حروب الشدّ والجذب بين إسرائيل وفلسطين. ومن ثمَّ، وبحسب المعايير الدولية، تُعدُّ مستوطنة غير شرعية و "تفصل شمال الضفة الغربية عن جنوبها على نحو يصعب تغييره، الأمر الذي يضيّق الخناق على ٥٠,٠٠٠ من الفلسطينيين الذين يقطنون في محيطها"[1]. وعلاوة على ذلك، تُعدُّ موطناً لعدد متزايد من الصهاينة المتديّنين، وهم عبارة عن حركة محافظة على نحو مغالى فيه بحيث تجمع ما بين الصهيونية التقليدية وعقيدة اليهود الدينية؛ وتهدف إلى تعزيز الاعتقاد بأن لدى الشعب اليهودي تكليفاً إلهياً بالمسؤولية عن إقامة دولة اليهود تعويضاً لهم، بالإضافة إلى المسؤولية عن تخليص هذه الدولة من السكان الأجانب استعداداً لقدوم اليوم الآخِر.

ووفقاً لبيانات صادرة عن الإدارة المدنية في إسرائيل في العام ٢٠٠٤، فإنّ ٨٦,٤ ٪ من مباني المستوطنة كانت قد أُقيمت على أراض خاصة تعود ملكيّتها لمواطنين فلسطينيين[2]. وتقوم بلدة معاليه أدوميم–عن طريق حراستها للطريق الفاصل بين القدس وجسر آلنبي Allenby (جسر الملك حسين) المؤدِّي إلى الأردن–بدور الحارس للجهة الشرقية الذي يحمي المجتمعات الزاحفة المتطورة التي تمتدُّ في عمق الضفة الغربية، مما يجعل إقامة الدولة الفلسطينية أمراً بالغ الصعوبة.

* * *

عندما عَلِم ديفيد ييروشالمي David Yerushalmi أنّ طائرتين نفاثتين ضربتا البرجين التوأم، كان يقطن آنذاك في بلدة معاليه أدوميم، حيث كان يعمل لصالح

معهد أبحاثٍ محافظ يدعم عملية إصلاح السوق الحر[3]. وكان مظهر هذا اليهودي من حركة الحاسيديم Hasidic–الذي يبلغ من العمر السادسة والخمسين عاماً، وذو لحية رمادية كثة، ونظارات دائرية، ووجنتين محمرَّتين–يوحي بوداعة تشبه شخصية بابا نويل (سانتا كلوز)، على الرغم من أنَّ ذلك المظهر لم يكن يبدو مبتهجاً للقيام بحمل الهدايا. لقد كان مواطناً أمريكياً في الأراضي المقدسة، ووطنيّاً يمينياً عند التخوم الصخرية لما كان يراه على أنه كفاح من أجل الحضارة.

لقد قام ابن المهاجرين الأوكرانيين إلى الولايات المتحدة باستغلال اسم أسرته –بيتشوك Beychock–وتعني بالعبرية "ابن القدس"–لكي تناسب آراءه الدينية السياسية المحافظة على نحو أفضل. وعلى الرغم من أنه ولد في ولاية فلوريدا، إلاّ أنّ صورة "ولاية الشمس الساطعة" التي تتميز بأشجار النخيل، والحياة المترفة، اصطدمت مع حكاية شعب الله المختار حبيس الصراع في سبيل الأرض التي ستقع عليها المعركة النهائية. وقد كتب المؤلف ريتشارد سيلفيرشتاين Richard Silverstein عنه قائلاً: "إنه يريد أن يقول لك بأنه يدعم مفهوم المستوطن لحرمة مدينة القدس الأبدية كمدينة وعاصمة يهودية"، وأضاف: "إنه يريد أن يخبرك بأنه يؤمن بجميع جوانب التطرف الأصولي الديني، المرتبط بمنحة الله المقدسة لجميع أراضي إسرائيل للشعب اليهودي كافة وللأبد"[4].

ويشير ييروشالمي بلهجة غاضبة أنه ينبغي على إسرائيل "أن تتحرر من نير الديمقراطية الليبرالية"، على أساس أنّ قيم التعددية التي ترتبط بها–كالتنوع الثقافي والمساواة بين الجميع في الحقوق–تتعارض مع رغبته بوجود دولة يهودية ذات دين واحد وعرق واحد. وتساءل ذات مرة قائلاً: "إذا كنتم حقاً ترضون بمواطنة العرب والمساواة معهم، فماذا أنتم فاعلون عندما يزيد عدد العرب عن اليهود"؟[5]

ويعتقد الصهاينة المتديِّنون بوجوب تطهير الأرض، وإلاّ ستبقى رحلة عودة المسيح إلى الأرض لتخليص شعبه مجرد قصة خيالية، ونبوءة غير مكتملة لإله تعتمد جلالته على الوفاء بالوعود. ولا يقدّم الصهاينة تنازلات لمن يُعتقد أنّ وجودهم يعوق هذه الخطة السماوية، كما ينبغي على السكان "الأجانب" الرحيل، وذلك استعداداً لليوم الآخر. أمّا السكّان من غير اليهود، حتى العلمانيين منهم، فإنهم غير مرحب بهم في النظام المقدَّس الجديد[6]، كما لا يؤثّر حلُّ الدولتين واتفاقات السلام كثيراً في تسريع رحيل ما أسماهم ييروشالمي " أبناء القبائل والعشائر الأشرار القتلة من غير المواطنين المعروفين باسم الفلسطينيين". ويرى ييروشالمي أنَّ مثل هذه التدابير تعدُّ تجاوزات كُفرية وضعها "اليهود الليبراليون المتطرفون" الذين "أداروا ظهورهم من الأساس للإيمان بالله ووصاياه، بوصفه كتاب شرائع معدٍّ لشعب مختار بعينه"[7].

وقد وردت مثل إحدى هذه الوصايا في الفصل السابع من الكتاب الخامس للعهد القديم، أي سفر التثنية:

> عندما يأتي بكم الرب إلهكم إلى الأرض التي تدخلونها بغية استملاكها، ويطرد منها الكثير من الأمم من أمامكم –مثل الحثيين، والجرجاشيين، والأموريين، والكنعانيين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين، وهم سبع أمم أكبر وأقوى منكم– وعندما يسلمهم لكم الرب إلهكم وتهزمونهم، فينبغي عليكم إبادتهم جميعاً. لا تعقدوا معهم معاهدة ولا تظهروا لهم رحمة. لا تتزاوجوا منهم، ولا تزوِّجوا بناتكم لأبنائهم، أو تزوِّجوا بناتهم لأبنائكم، لأنهم سيضلّون أبناءكم عن اتباعي ليعبدوا آلهة غيري، وسيحرقكم غضب الرب ويبيدكم سريعاً. وهذا ما ينبغي عليكم أن تفعلوه معهم: حطِّموا مذابحهم، ودمِّروا حجارتهم المقدسة، وقطِّعوا أعمدة سواريهم، وأحرقوا أصنامهم في النار، فأنتم شعب مقدس عند إلهكم. لقد اختاركم الرب إلهكم من بين شعوب الأرض كافة لتكونوا شعبه وملكه العزيز[8].

* * *

ترتبط قضية إسرائيل ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخوف من الإسلام، لكن اليمين المناصر لإسرائيل لا يضمُّ فقط الصهاينة المتديّنين وأمثالهم ممن تقوم رسالتهم على إعداد أنفسهم لحياة الآخرة السماوية، والذين يضعون الناس من غير اليهود–الذين هم في هذه الحالة المسلمون الفلسطينيون–في موقع تقاطع لقصة إيمان عنيفة.وتشتمل صناعة الخوف من الإسلام على تحالف لأعضاء كُثُر من أطياف اليمين المناصر لإسرائيل. وعلى الرغم من اختلاف أسباب حملاتهم المعادية للمسلمين، إلاّ أنهم في واقع الأمر ينضوون جميعاً على نحو ثابت ضمن المعسكر المناصر لإسرائيل، والمعادي للمسلمين. وتعدُّ النبوءة عند الصهاينة المتدينين المحرك الرئيس لحمّى الخوف من الإسلام، فهم يعتقدون أنَّ الفلسطينيين ليسوا فقط من السكان غير المرغوب بهم، وهم ليسوا مجرد عرب في أراض يهودية، وليسوا حتى مجرد مسلمين. إنهم من غير اليهود–دخلاء ينحدرون من أصول مختلفة–وتعدُّ وصايا الله بشأنهم واضحة جداً. ويؤمن المسيحيون الصهاينة برؤية مشابهة، فهم أيضاً يصيغون كثيراً من لغتهم حول الإسلام والمسلمين في خطاب ديني يدعم عودة اليهود للأرض المقدسة كمقدمة للظهور الثاني للمسيح. ويبقى هناك أيضاً أولئك الذين يدعمون إسرائيل من جهة، ويعادون المسلمين من جهة أخرى نتيجة لدوافع سياسية. وعلى سبيل المثال، تعمل العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل على توجيه نظرتهم المتمرّدة، وسواء أكان الأمر عندهم مسألة اعتزاز قومي أم مخاوف بشأن استقرار الشرق الأوسط، فقد أصبح الإسلام يجسّد في أذهانهم تهديداً بعيد المدى وبلا حدود، وهو من النوع الذي يسعى إلى الإخلال بضمانات المشهد السياسي الحالي. وعلى الرغم من الدوافع العقائدية المختلفة لمؤيدي إسرائيل، إلاّ أنهم أصبحوا يرون في إسرائيل دولة تتعرّض للتهديد نتيجة للتوسع الإسلامي. وفي الداخل الإسرائيلي، قام السياسيون الساعون

لتحقيق أجندتهم الوطنية الخاصة ببذل جهود حريصة لاستغلال مثل هذه السيناريوهات الجنونية. وفيما مضى، كان موقف إسرائيل المناهض للشيوعية، والمعارض المنيع ضد تنامي القومية العربية؛ ما أدّى إلى تحقيق دعم غربي قوي لإسرائيل. أما اليوم فقد حل الإسلام محل المخاوف القديمة باعتباره "المارد الأسود" في العصر الحديث.

* * *

في الوقت الذي كان فيه الأمريكيون يعانون من الصدمة إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكانوا غير قادرين على استيعاب تلك الأحداث التي جرت أمام أعينهم، كانت الدهشة أقل من ذلك لدى كثير من الدوائر الإسرائيلية. وكان الصحفي دوف جولدشتاين Dov Goldstein قد كتب في صحيفة "معاريف" التي تصدر من تل أبيب قائلاً: "إنَّ إسرائيل ما فتئت تحارب الإرهاب منذ أكثر من مائة عام"، وأضاف: "لا توجد هناك دولة في العالم حاربت الإرهاب لفترة طويلة وبحزم مثلما فعلت إسرائيل... فإسرائيل ليست بحاجة إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر الدموية، لأنها بدأت الحرب على الإرهاب قبل زمن طويل من حداد الولايات المتحدة على ضحاياها الناجمة عن الإرهاب"[9].

في وقت متأخر من ذلك المساء، وعندما كان قادة العالم يتسارعون لإصدار ردود عامة يشجبون فيها العنف، تحدث بنيامين نتنياهو للصحفيين في القدس واصفاً تلك الهجمات بأنها "جيدة جداً". ومن ثمَّ صحَّح نفسه قائلاً: "حسناً، ليست جيدة جداً، لكنها ستولد تعاطفاً فورياً وتقوّي الروابط بين شعبينا، لأننا تعرّضنا للإرهاب على مدى عقود عدة. لكن الولايات المتحدة تعيش الآن تجربة دموية كبيرة جداً نتيجة الإرهاب"[10]. لقد ازدادت معالم الانقسامات السياسية حدّة في وقت الكارثة الكبرى،

لتشكّل أجواءً جديدة يستطيع من خلالها السياسيون الإسرائيليون استباحة الاستيلاء على الأراضي في الضفة الغربية. وأشار نتنياهو إلى أنّ واشنطن وإسرائيل تحاربان في نفس الحرب، كما أنّ معارضي دولة إسرائيل من الفلسطينيين يشتركون مع خاطفي طائرات الحادي عشر من سبتمبر في الهوية الدينية والعرقية، إذ إنّ الخاطفين كانوا من العرب المسلمين. ومن هذا المنطلق، فإنهم يشتركون في نزعتهم للإرهاب.

لقد أدَّت أجواء الذعر المعنوية في أعقاب الأزمة إلى عدم وضوح معالم الحرب التي تميّز الصراع. كما أدّى الإعلان عن بدء "الحرب ضد الإرهاب" بأهدافها الفضفاضة إلى ظهور جَبهات غير مترابطة من الجدل الديني والسياسي تحت شعار عقائدي واحد. وفي الذكرى الأولى لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون بصراحة قائلاً:

> إنّ إرهاب بن لادن الانتحاري، وإرهاب حركة المقاومة حماس، وفصيل "التنظيم" التابع لحركة فتح، وحزب الله، والإرهاب الذي تخطط له السلطة الفلسطينية، وتورّط صدام حسين بالإرهاب الفلسطيني ودعمه له، وشبكات الإرهاب التي تديرها إيران، تعدُّ جميعها مكوّنات لا تنفصل عن محور الشر ذاته الذي يهدد السلام والاستقرار في كل مكان في العالم[11].

لقد قامت برامج مكافحة الإرهاب الجديدة بعمل ما كان يأمله نتنياهو تماماً، فقد أتاحت لإسرائيل المضي قُدماً في سياساتها الوحشية ضد الفلسطينيين[12]. وقد لاحظ العالِم السياسي نيفيه جوردن Neve Gordon أنَّ إسرائيل قتلت من الفلسطينيين في السنة الواحدة بين العامين ٢٠٠١ و٢٠٠٧ عدداً أكبر مما ارتكبته خلال العشرين سنة الأولى من الاحتلال. بالإضافة إلى ذلك، ومنذ انطلاق الانتفاضة الثانية في أكتوبر (تشرين الأول) من العام ٢٠٠٠، ارتكب الإسرائيليون مجازر بحقِّ الفلسطينيين راح ضحيتها ضعف أعداد الذين قُتلوا في السنوات الـ ٣٤ السابقة[13].

وكتب ديفيد بيروشالمي من إسرائيل مفسِّراً: "إنّ الحقيقة التي تشير إلى أن المسلم العادي لا يلبس حزاماً ناسفاً على ظهره لا تقلِّل من حقيقة مساندته لمثل هذه الأساليب". وأشار إلى أنَّ ما يزيد عن ٧٠٪ من الفلسطينيين يدعمون التفجيرات الانتحارية التي تستهدف المدنيين اليهود، وبيَّن أنّ الدافع وراء هذه الرغبة التحريضية لدى المسلمين كافة تكمن في "سعيهم لإنهاء نظام البشرية السياسي أو الدول القومية"، وقد يكون أولها إسرائيل والولايات المتحدة[14]. وكان قد كتب ذات مرة قائلاً: "إنّ الحضارة الإسلامية هي في حالة صراع مع الحضارة المسيحية اليهودية"[15]، حيث أشار إلى أنَّ رسالته باتت تتمثل في ردعهم. وفي العام التالي، عاد بيروشالمي إلى نيويورك ليعيد سرد رواياته، وتجاربه التي تتحدّث عن وجوده في الخطوط الأمامية مع الإرهاب، كما قام بتنظيم حملة وطنية بهدف اجتثاث العدو الإسلامي من حدوده الأمريكية الجديدة.

* * *

قام بيروشالمي في العام ٢٠٠٦ بتأسيس "جمعية الأمريكيين من أجل الوجود القومي" Society of Americans for National Existence (SANE)، وهي جماعة تأييد مقرها في ولاية أريزونا وتقود الجهود الرامية إلى تجريم تطبيق الشريعة الإسلامية. وقد وصفت المنظمة نفسها بأنها "تكرِّس نفسها لنبذ الديمقراطية، وحكم الأحزاب، وتدعو للعودة إلى الجمهورية الدستورية الخاصة بالآباء المؤسّسين" الذين كانوا-كما يذكِّر بيروشالمي قرَّاءه-من أولئك "المسيحيين المخلِصين الذين كانوا في الغالب من الرجال، وجميعهم من البيض تقريباً". وفي ذات العام، وفي مقالة له بعنوان "حول الأعراق: مناقشة أوّلية" On Race: A Tentative Discussion، تحدَّث بيروشالمي عن "السود واصفاً إيّاهم بأنهم أكثر الناس إجراماً"[16].

وكان أحد أوّل المشاريع الذي أطلقته "جمعية الأمريكيين من أجل الوجود القومي" (SANE) بهدف ردع النجاحات المزعومة لتقدّم المسلمين يتمثَّل في حملة أُطلق عليها العنوان: "وصف الشريعة: معرفة العدو" Mapping Sharia: Knowing the Enemy. وقد سعت الدراسة الى استقصاء سلوكيات وممارسات رواد المساجد، ووفقاً لبيان صحفي صادر عن الجماعة؛ فإنّ الدراسة كانت تهدف "إلى التحقق من الفرضية بأنّ الشريعة ترقى إلى كونها مؤامرة جنائية تسعى إلى تدمير حكومة الولايات المتحدة"[17]. وقد تلقّت الدراسة دعماً ماليّاً بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠دولار أمريكي جاء جزء منها من "مركز السياسة الأمنية" Center for Security Policy، وهو مركز أبحاث محافظ أسَّسه فرانك جافني Frank Gaffney الذي يُعَدُّ أحد الناشطين المحافظين الجدد المعادين للمسلمين. وقد عمل بيروشالمي بصفة مستشارٍ عامٍّ لجافني، كما عمل بذات الصفة لكلٍّ من باميلا جيلر، وروبرت سبنسر[18].

وكما كان الحال مع بيروشالمي، لم يكن مدير المشروع ديفيد جوباتز David Gaubatz بعيداً عن الجدل، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمسلمين، حيث أشار ذات مرة إلى باراك أوباما واصفاً إياه بأنه "قائدنا المسلم"، كما وصف الإسلام بأنه "مرض عُضال"[19]. وكان قد صرّح في العام ٢٠٠٩ في كتاب له حمل العنوان "المافيا الإسلامية"، أنَّ الحكومة الأمريكية وقعت ضحية لمؤامرة تسلُّل قام بها "مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية" (CAIR). ورأى جوباتز أنّ مساعدة المجموعة للمسلمين الأمريكيين الذين يرغبون بالعمل في مبنى الحكومة في العاصمة (Capitol Hill)، يُعَدُّ دليلاً على وجود خطة شريرة. وقد وافقه على هذا الطرح أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، حيث ذكر جون شايديغ John Shaedegg النائب عن ولاية أريزونا أنّه سوف "يشجع الأمريكيين على قراءة" كتاب جوباتز. ولم تكن حماسة النائبة عن ولاية

كارولاينا الشمالية سو مايريك Sue Myrick حول الكتاب مفاجِئة، بوصفها هي التي كتبت المقدّمة للكتاب. وقد دعا كلاهما، إضافة إلى النائب بول براون Paul Broun من جورجيا والنائب ترينت فرانكس Trent Franks من أريزونا، ضابط الأسلحة في مجلس النواب House sergeant-at-arms للتحقيق فيما إذا كان "مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية" (CAIR) قد وضع متدرِّبين مسلمين في مكاتب حكومية رئيسة. وقد تبيّن فيما بعد، أنَّ ابن جوباتز الذي يُدعى كريس كان نفسه قد اقترف جريمة التسلُّل، حيث قدَّم نفسه على أنه متدرِّب مسلم في مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية؛ وذلك ليسرق أكثر من ١٢,٠٠٠ وثيقة جرى استخدامُها في أبحاث الكتاب[20].

وفي حين كان الناس يتلقون جهاراً المواعظ التي تحضُّهم على اتخاذ الحيطة والحذر من المؤامرات الإسلامية المزعومة، كان جوباتز و"جمعية الأمريكيين من أجل الوجود القومي" (SANE) هم أنفسهم من لديهم تاريخ في نشر الأساليب المضلِّلة. وبعد أن قام بمهمته كمدير لمشروع "وصف الشريعة" لقاء مبلغ وقدره ٢٥٠ ألف دولار أمريكي على مدى عامين، انطلق الصياد والعميل الاتحادي السابق-المدّعي اعتناقه للإسلام-مع باحثيْن آخريْن في رحلة استغرقت ١٨ شهراً، قطعوا فيها البلاد طولاً وعرضاً، بحثاً عن فريسة تطبّق قوانين الشريعة. وقد قادتهم رحلاتهم إلى قاعات الصلاة في أكثر من مائة مسجد عبر البلاد، متنكّرين بزي الملتزم بالشريعة-لحية بطول بوصة واحدة، وبلا شارب أو حليّ ذهبية-حيث دخلوا بيوت العبادة مع المسلمين لجمع "معلومات" مثل: طول لحية الإمام، ونسبة المتعبّدين الذين يرتدون القبعات، وطبيعة الكتب والمطبوعات المتوفرة للزائرين، وملحوظات عما إذا كان الرجال يتباهون بلبسهم الساعات اليدوية في اليد اليمنى أم اليسرى[21].

وكما كان متوقعاً، فقد أكَّدت النتائج تنبؤاتهم، حيث أعلن بيروشالمي قائلاً:"لدينا المعلومات التي تدلُّ على أنّ هناك مشكلة في مساجد الولايات المتحدة"[22]. وقد أشار بلغة الأرقام إلى وجود ما تصل نسبته إلى ٨١٪ من المساجد التي تحوي موادَّ مطبوعة تحضُّ على العنف، وكان أكثر من ٨٥٪ منهم يوصون بنشر المواد المتطرفة بين المصلين[23]. وقد جرى نشر الرقم العالي المذهل كسبق صحفي فوراً، وجرى تعميمه في عالم المدوَّنات. وكتب روبرت سبنسر Robert Spencer قائلاً: "لقد أظهرت دراسة جديدة أن ٨٠٪ من مساجد هذا البلد تعلّم الحرب الجهادية، والتفوّق الإسلامي"[24]. أما باميلا جيلر–التي كانت قد قالت بحماس عند الإعلان عن الدراسة عام ٢٠٠٧: "الحمد لله أن هناك من يقوم بذلك"، فقد كانت متلهّفة على نفس القدر حيال النتائج. و"أخيراً" كتبت وهي تقول:

> يقلقنا الدليل العلمي على نحو عميق، لكنه غير مفاجئ، حيث تقوم غالبية المساجد في أمريكا بتعليم الجهاد العنيف، وتعمل على توسُّعه وتعزيزه كما تمليه عليهم التعاليم الإسلامية. فهل نستغرب أن تسعى الجماعات المرتبطة بالإخوان المسلمين مثل مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (CAIR) إلى تحقيق تشريعات وسياسات تحدّ من تطبيق القانون في المساجد؟[25]

وقبل أن يُتاح الوقت لتصل نتائج دراسة "وصف الشريعة"، التي أجرتها "جمعية الأمريكيين من أجل الوجود القومي" (SANE) إلى العامّة، كانت شهية تهويل الأمور لدى بيروشالمي قد دفعته للبدء في مطاردة أخرى. وبما أنه عضو في "فريق ب ٢"، فقد أصبح من أصحاب الجنرال المسيحي الصهيوني جيري بويكِن، وهو من الأصوليين المتعصبين الذي تركت آثاره الأولى في الشرق الأوسط انطباعات عميقة بالهيمنة الدينية التي يقودها الأمريكيون. وقد انضم بويكِن وبيروشالمي إلى فرانك

جافني، الخبير بسياسة أمن إسرائيل والمؤيد لها، ليكتبوا: "الشريعة: هي تهديد لأمريكا"، وهي تفسيرات مرعبة حول "التهديد الاستبدادي الأقوى في زماننا"[26].

وقد غطَّى حق إسرائيل في فلسطين جميع صفحات التقرير المكوَّن من ١٧٧ صفحة. وكان من بين الصور المتعددة التي ملأت التقرير الحزين اقتباسات موثقة لياسر عرفات، وإشارات لهجمات شنّها حزب الله وحماس ضد إسرائيل، وتذكير بتهديدات شرسة وجّهها قادة سياسيون مسلمون ضد الدولة اليهودية، فالأرض المقدّسة كانت تحت الحصار. وقد أوضح أعضاء الفريق ب ٢ في "نادي الصحافة الوطني" بتاريخ ٢٣ مايو (أيار)، ٢٠١١ عن ذلك الأمر عن طريق إنشاء ائتلاف تحت عنوان "إسرائيل: أنت لست وحيدة"، وهي مجموعة ناشطة انطلقت بهدف تقويض الدعوات العامة لإبرام اتفاقية سلام مع فلسطين تقوم على حدود ما قبل عام ١٩٦٧. كيف يمكن لإسرائيل أن تتخلى عن الأرض التي فتحوها في حرب الأيام الستة– الأرض الموعودة التي منحها الله لهم؟

لقد أعاد فرانك جافني إلى الأذهان السؤال الذي طُرح على مجموعة من القادة العسكريين بعد حرب ١٩٦٧ عن إمكانية تنازل إسرائيل بأمان عن أراضٍ حصلت عليها في خضم أعمالها الدفاعية. ويصف هؤلاء القادة بكل حزم قائلاً: "لقد كانوا هيئة الأركان المشتركة"، ويضيف: "لقد وجدوا أن إسرائيل لا يمكنها البقاء دون أراضي الضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، وغزة، التي كسبوها أثناء الحرب. وهذه هي الحقيقة اليوم، وكانت هي الحقيقة ذاتها في العام ١٩٦٧، ونحن نعرِّض أنفسنا للخطر عندما نتجاهلها ".

وقد حذَّر جافني–وهو يحمل نسخة من تقرير الشريعة–بأنَّ الانتقال إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ سيكون هدية خطيرة للعدو، إذ إنها –بحسب قوله–سوف "تقود إلى

حرب يجري فيها الاعتداء ليس على إسرائيل فحسب، كما كان عليه الحال في كثير من الأحيان في الماضي، وإنما بكل تأكيد ستشمل المنطقة برمّتها، وربما مناطق أخرى كثيرة، وقد تُغطّي العالم بأسره على الأرجح". وذكّر جيري بويكِن-الذي كان يستخدم لغة دينية خاصة في نقاشه-الجمهور المحتشد ذي الغالبية اليهودية "بأن اليهود كانوا فلسطينيين أيضاً. والأمر لا يتعلق بالعرب وحدهم؛ مما يوجب علينا أن نطلق على هؤلاء الناس ما نتحدث عنه فعلاً، أي العرب المسلمين، الذين لا يمكنهم أن يكرهوا إسرائيل على نحو أكثر من كرههم السابق لها"[27].

لقد أصبح التهديد مكشوفاً، إذ ينبغي وقف الشريعة. وقد بدأ ديفيد بيروشالمي بوضع نصوص تشريعات تسعى لمنع التأثير المزعوم للشريعة الإسلامية في الولايات المتحدة. وجرى توزيع نصوص" القوانين الأمريكية للمحاكم الأمريكية" -كما أُطلق عليها-على جميع أنحاء البلاد، ودعمتها على مستوى الولاية جماعات مثل جماعة بريجيت غابرييل "اعملوا لأجل أمريكا" !ACT التي حشدت-بتوجيهات من الصهيوني المسيحي جاي روجرز Guy Rodgers-الفروع المحلية خلف مشاريع القوانين، ودفعت بها عبر الأروقة التشريعية الخاصة بالولاية. واعترفت نقابة المحامين الأمريكية بـ "المبادرة المعادية للشريعة" التي أطلقها بيروشالمي، وسلّمت بأن كثيراً من المشرِّعين الذين تبنّوا مثل هذه التدابير قد قاموا باستخدام نموذجه. وقد ظهر مشروع القانون حرفياً في ثلاث ولايات هي: ألاسكا، وكارولاينا الجنوبية، وتكساس-وتكرَّر النموذج في كثير من مقرّات الحكومة في الولايات الأخرى[28]. وقد قدَّمت اثنتان وثلاثين ولايةً تشريعاتٍ معاديةً للشريعة على نحوٍ ما. وأشارت سالي كيرن Sally Kern النائبة الجمهورية في ولاية أوكلاهوما قائلة: "إنه من المفيد دوماً أن تكون قادراً أن تُخبر زملاءك أنّ 'هذا الجزء من التشريع مطابق تماماً لما عليه الحال في عشرين ولاية أُخرى'"[29].

* * *

لم يكن العدد الصادر في صباح الأحد من صحيفة "رالي" Raleigh–وهي News and Observer لشمال كارولاينا–المكان المعتاد لنشر الأكاذيب، إذ عادة ما كانت تتخلَّل ثنايا صحيفة المدينة منشورات إعلانية تتضمن قسائم الأسواق التجارية، وإعلانات عن آخر عروض البقالة أو منظِّفات الغسيل، حيث يُوزَّع حوالي ٢٠٠,٠٠٠ نسخة منها في يوم الاستراحة التقليدي. ولكن شهر سبتمبر (أيلول) من العام ٢٠٠٨ كان مختلفاً، حيث إنه قبل شهرين من الانتخابات التاريخية للرئاسة–التي أوصلت أول رجل أمريكي من أصول إفريقية لمنصب القائد الأعلى للقوات المسلّحة–كانت ولاية "كعب القطران" Tar Heel، الاسم المستعار لولاية كارولينا الشمالية، إحدى ساحات المعارك السياسية الساخنة عندما جرى استهدافها بفيلم صارخ وُضع على أقراص DVD ومدَّته ٧٧ دقيقة يتحدّث عن "حرب الإسلام المتطرِّف ضد الغرب"[30].

وكان فيلم "الهَوَس" *Obsession*–كما جاءت تسميته–قد وُضِع ضمن الرسوم الهزلية والدعايات الإعلانية في أكثر من ٧٠ صحيفة في أنحاء البلاد، حيث وصل ما يقرب من ٢٨ مليون نسخة من هذا الفيلم الوثائقي إلى غرف معيشة المتلقِّين المُطمئنّين. وقد ظهرت في الفيلم صور لغوغاء مسعورين وهم يحرقون العلم الأمريكي، وصور لدبابات تتعرض للتفجير في الصحراء، ولقطات مركّبة لا حصر لها لألمانيا النازية، وقد حُبكت على شكل قصة يرويها "خبراء" يوردون قوائم لأسماء معروفة من الدّعاة والمفكرين المسلمين.

وكان الأمر الوحيد الذي يجمع المعلّقين–فضلاً عن كرههم غير المنطقي للمسلمين–هو حماستهم الكبيرة لإسرائيل التي عبّروا عنها عن طريق قلب الحقائق وذلك عند تقييمهم المقتضب للفلسطينيين. وكان من بين الأشخاص اللامعين في الفيلم دانييل بايبس الحاصل على جائزة "حارس صهيون" لعام ٢٠٠٦، ووليد

شعيبات المسيحي الإنجيلي الذي انكشفت ادِّعاءاته بأنه كان "إرهابيّاً مسلماً" في السابق، وبريجيت غابرييل التي عملت فروع جماعتها "اعملوا لأجل أمريكا" على إنشاء فصائل من المناهضين للشريعة في جميع أرجاء البلاد[31].

وعلى أية حال، فإنَّ جذور هؤلاء المتعصِّبين المؤيِّدين لإسرائيل توطدت على نحو أعمق مما قام به المحرِّضون الظاهرون على الشاشة، فقد توسعوا ليصلوا إلى جيوب منظمات غامضة عكفت على تمويل أفلام بملايين الدولارات. وقد اشتُقَّ اسم منظمة "صندوق كلاريون" Clarion Fund، كما كان يُطلق عليها، من كلمة البوق ذي الفوهة الضيقة والصوت الحاد الذي كان يستخدم في القرون الوسطى للإعلان عن بداية الحرب. ولكن على النقيض من أولئك العازفين الذين كانوا يقفون بافتخار في أعالي التلال، وينذرون السكّان المجاورين بنغمات تحذيرية حادة، كان مثيرو الرعب هؤلاء المناهضين للمسلمين يعملون بالخفاء، حيث كانت أصواتهم تشبه زعيق يوم القيامة، بينما يخفون آثار فعلتهم بحذر شديد.

وقد قام رافائيل شور Raphael Shore–وهو حاخام يهودي وصانع أفلام كندي إسرائيلي، وذو تاريخ من العلاقات مع الصهيونية الدينية وحركة المستوطنين الإسرائيلية–بتأسيس المنظمة في العام ٢٠٠٦ كواجهة للمحافظين الجدد، ولجماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل. وقد كانت ناطحة السحاب التي تضم مجمع مكاتب شور في مانهاتن خالية، حيث يمثِّل مكتب شركة غريس Grace Corporate Park "مكتباً افتراضياً" كواجهة لشركة نيويوركية راقية، حيث تحمل عنوان عمل، ورقم هاتف في مدينة نيويورك بكلفة قليلة لا تتجاوز الـ ٧٩ دولاراً شهرياً. وبحسب وثائق شركة ديليوير Delaware، فإن عنوان مكان عمل شور المزيّف تعود ملكيته أيضاً إلى حركة تعرف باسم "أيش ها توراه" Aish HaTorah أو "نار التوراة"، وهي جمعية تبشيرية

إسرائيلية يهودية هدفها الدعوة إلى "انضواء" اليهود في الحركة اليهودية الأرثوذوكسية المتطرفة[32]. وقد وصف جيفري جولدبيرج Jeffrey Goldberg من صحيفة "ذا أتلانتيك" The Atlantic يوماً هذه الجماعة على أنها "أكثر حركة أصولية يهودية في زمننا الحالي، حيث إنّ نشطاءها يزدهرون في نطاق المستوطنات اليهودية المتطرفة جنوب نابلس شمالي الضفة الغربية، وتعمل قواعدها الأمامية عبر العالم على نشر الدعاية نيابة عن نوع من اليهودية العقيمة، والمتحيِّزة جنسيّاً، والانتقامية[33]. وقد تفاخرت الجماعة في العام ٢٠٠٩ عندما نصبت نسخة طبق الأصل للهيكل الثاني، الذي احتوى على ذات النوع من الذهب والفضة كما كان عليه الحال في الأصل، وذلك في أعلى قمة "مركز التواصل الدولي" International Outreach Center. لقد دمَّر الرومان الهيكل الأصلي قبل ألفي عام، واليوم تقف قبة الصخرة–ثالث أقدس مسجد وموقع إسلامي–على "جبل الهيكل". وبحسب التقاليد اليهودية، فإن عودة المسيح لن تحدث حتى يُعاد بناء الهيكل. ويبدو أنَّ هذا العرض المبهرج–رغم عدم حقيقته–"يعجِّل في مخاض ميلاد المسيح"، وذلك بحسب ما جاء على لسان ريتشارد سيلفيرشتاين[34]. وعندما نُصب النموذج الذي يزن طناً واحداً بواسطة رافعة في أعلى القمة التي استقرَّ عليها، قالت إحدى النساء " إنَّ ما نشهده اليوم هو تجربة بسيطة، ومجرد تذوّق لما سيحدث. وإننا لنأمل أن يتحقّق ذلك بسرعة في وقتنا الحاضر، بحيث يهبط الهيكل الحقيقي من الأعمالِ تماماً كما حدث مع الأول، وينتصب بالضبط إلى يمين ذاك الشيء الذهبي اللامع (مشيرة إلى قبة الصخرة الإسلامية)"[35].

ويقع مكان العمل الحقيقي لرافائيل شور تحت الهيكل، ويطلُّ على الجدار الغربي منه، فهو يعمل مديراً للجناح الدولي لـ "نار التوراة"، ويدعو إلى تحوّل الجماعة من أسلوبها التربوي إلى آلة دعائية سياسية شرسة تبثُّ مشاعر التأييد لإسرائيل،

ومعاداة المسلمين بين جمهور الناخبين الأمريكيين[36]. ويعمل شقيقه إفرايم إلى جانبه بوصفه مديراً لوكالة إعلامية تحت عنوان "الصحافة الصادقة" Honest Reporting، التي فضلاً عن مساعدتها في إنتاج فيلم " الهَوَس"، تعكف على مراقبة الأخبار العالمية بهدف رصد التحيزات ضد إسرائيل، وإطلاق الحملات المناهضة للحل القائم على وجود دولتين[37]. وصرَّح رون توروسيان Ronn Torrosian المتحدث باسم "نار التوراة"، الذي دعا ذات مـرة إلى ذبح ألف عربي بالكامل مقابل كل يهـودي يتعرَّض للقتل، أنَّ أيـة صلـة متوقّعة بين الجماعتـين هي مجـرد ضـرب من الأوهـام[38]. وتساءل توروسيان: "تتحدث 'نار التوراة' عن امرأة قابلت بول مكارتني، فهل ذلك يعني أننا مرتبطون به"؟[39] وكان نظير توروسيان، وهو جريجوري روس Gregory Ross -المتحدث الرسمي باسم كلاريون-من ضمن جامعي التمويل الدولي لصالح "نار التوراة"، وفي العام ٢٠٠٦-خلال تأسيس مؤسسة كلاريون-ظهر اثنان من مديريها الثلاثة بوصفهم موظفين في الموقع الإلكتروني لـ "نار التوراة"[40].

وفي حين يُعدُّ "صندوق كلاريون" للتمويل وسيلة لنشر إيديولوجيا الجناح الأيمن لـ "نار التوراة"، فإنَّ "نار التوراة" نفسها تُعدُّ أداة مماثلة لها في توجيه الأهداف السياسية للحكومة الإسرائيلية (خاصة توسيع المستوطنات في المناطق الفلسطينية) عن طريق "جماعة هاسبارا" Hasbara Fellowship، وهي منظمة ناشطة أنشأتها جماعة "نار التوراة" في العام ٢٠٠١ بالتنسيق مع وزارة الشؤون الخارجية الإسرائيلية. ويكمن هدف البرنامج في "تعليم وتدريب طلبة الجامعات كي يصبحوا نشطاء مؤيدين لإسرائيل في جامعاتهم على نحو فاعل[41]. "ويقوم المشاركون بالاجتماع بمسؤولين إسرائيليين من المستوى الرفيع، ويحضرون ورشات العمل المقامة في مدينة القدس، حيث "يُجرون مقابلات مع ضحايا الإرهاب"، ويتعلمون كيف "يرسمون صورة

إسرائيل"، ويردُّون على قضايا "معاداة السامية" في جامعاتهم. كما يجري تشجيعهم على إنشاء فروع لـ "رصد وسائل الإعلام الفلسطينية" Palestinian Media Watch لدى عودتهم. أمّا بريجيت غابرييل، مديرة " اعملوا! لأجل أمريكا"، فقد كان لها تاريخ مع الجماعة، فقد وُضعت صورتها على نحو دائم على مواقعها الإلكترونية، وكانت قد شاركت في حوارات مثمرة نيابة عنهم؟[42]

ولكي يجري عرض فيلم " الهَوَس" في جامعة نيويورك عام ٢٠٠٨، طُلب من الحضور أن يقوموا بالتسجيل في موقع نشطاء إسرائيل (Israeliactivism.com)، وهو الموقع الإلكتروني الخاص بـ "جماعة هاسبارا". واتّضح لاحقاً أنّ رافائيل شور كان مدير "جماعة هاسبارا"، إلاّ أنَّه قلَّل من شأن ارتباطات الفيلم مع إسرائيل، وأشار قائلاً: "هذا الأمر لا يُفيد، إذ إنني لا أريد أن يكون الأمر مرتبطاً باليهود وبإسرائيل فقط"[43].

لكن الأمر كان فعلاً مرتبطاً بإسرائيل إلى حدٍّ كبير.

ولكي تتمكن إسرائيل من التوسع في المناطق المتنازع عليها، وتنتزع المزيد من الأراضي دون استنكار من أمريكا والمجتمع الدولي الأوسع، كان عليها أن تنجح في تصوير الفلسطينيين-كل الفلسطينيين-على أنهم والإرهابيون سواء. ولكن لكي يتسنّى لإسرائيل أن تحشد التأييد لسياساتها، كان عليها أن تصوِّر اليهود على أنهم الضحايا دائماً، ابتداءً من صدمتهم نتيجة الإبادة الجماعية التي تعرَّضوا لها في أوروبا برعاية دولة أدولف هتلر إبان الحرب العالمية الثانية، وحالياً ما تتعرض له إسرائيل من عنف لا رادع له على يد المقاتلين المسلمين الفلسطينيين. ولذلك أصبحت حياة الفلسطيني تبدو أقل قيمة من حياة الإسرائيلي ويمكن الاستغناء عنها على نحو أكثر سهولة.

ويذكر رافائيل شور أنَّ "هناك تصوُّر شائع عززته وسائل الإعلام ويُشار إليه غالباً بـ 'التكافؤ الأخلاقي' moral equivalency"، ويضيف شور قائلاً:

> إنَّ هذا الأمر يعني أن يُطلب من الناس أن يعدّوا الضحايا من كلا جانبي النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي على أنهم متساوون في المأساة. وفي حين يُعدُّ فقدان حياة أي إنسان على أنها أمر مأساوي جداً، إلا أنّه ينبغي علينا أن نميِّز من الناحية الأخلاقية بين ضحايا الإرهاب، وبين ضحايا هؤلاء الذين يحاولون الدفاع لحماية أنفسهم ضد الإرهاب. وبمعنى آخر، فإنّه إذا لم يشارك الفلسطينيون في أعمال حرب إرهابية نتج عنها ١٨,٠٠٠ هجوم إرهابي في السنتين ونصف الأخيرتين، فإن إسرائيل لم تكن لترد عليها دفاعاً عن النفس، ولم يكن ليقع أيّة إصابات بين الفلسطينيين[44].

وتظهر قصة اضطهاد اليهود في صلب فيلم "الهَوَس"، حيث تتوالى سلسلة من صور المحرقة اليهودية على الشاشة، لكي تُلهب نفوس مشاهدي الفيلم بذكريات مرعبة تصوّر غرف الغاز، وأفران حرق الجثث، وفرق الرمي بالرصاص، والقبور الجماعية. وكانت تظهر من بين لقطات الأبيض والأسود التي تصوِّر جزَّار أوروبا وهو يتبختر كلما نفَّذ فعلاً من أفعال الإبادة، لقطة حديثة لنساء وأطفال إسرائيليين وقد تقطّعت أوصالهم، وكانوا ينزفون حتى الموت على يد الفدائيين الفلسطينيين. وإذا لم تكن مضامين هذه المقاربة-التي وضعت الهلال الإسلامي عمليّاً مكان الصليب النازي المعقوف-واضحة، فقد قام الفونز هيك Alfons Heck-وهو نازي وضابط سابق في منظمة شباب هتلر-بتوضيح أوجه التشابه، حيث أشار قائلاً: "لقد كنا شعباً مثقّفاً وخُدعنا بهذا الأمر، فلماذا لا ينخدع المسلمون لنفس السبب"؟ وأضاف: "إنَّ ما يفعله المسلمون بأبنائهم يُعدُّ أسوأ مما فعله هتلر". وصرّح وليد شعيبات-الذي يصف نفسه على أنه إرهابي فلسطيني سابق-أن خارطة الطريق الخاصة بالنقاء العرقي، التي وردت في صفحات كتاب القائد النازي تحت عنوان "كفاحي" Mein Kampf، لم تكن

مغايرة لأهداف المفهوم الإسلامي للجهاد. وقد حذَّر المؤرخ مارتن جيلبرت Martin Gilbert أنه في حال تجاهلنا تلك الأهداف، فإن "الملايين" سيلقون نفس مصير من تصطف جثثهم في شقوق مقابر البشر السحيقة[45].

وكان من أحد أجزاء معادلة رافائيل شور هو إقناع الـ ٢٨ مليون ناخب الذين حصلوا على نسخة من فيلم "الهَوَس" بأنّ الإسلام المتطرّف يشكِّل تهديداً مباشراً على المجتمع. أمّا الجزء الآخر للمعادلة، فهو يتمثَّل في توعيتهم بكيفية وقف الإسلام، أو الأفضل من ذلك، وهو "مَن" يمكنه كبح الإسلام. وقد كان عليهم اختيار المرشح المناسب ذي الرؤى التي تنسجم على نحو وثيق مع اليمين المناصر لإسرائيل، بحيث تكون سياساته تجاه إسرائيل تعمل على التسهيل لاستمرار إسرائيل في انتزاع الأراضي في الضفة الغربية. وفي ضوء الشائعات المتواصلة التي تشير إلى أنَّ الديمقراطي باراك أوباما كان مسلماً في السر، وفي ضوء الحقائق السياسية التي تتضمن دعمه القوي لحل الدولتين، كان الجمهوري جون ماكين John McCain هو الخيار الطبيعي. وقد كان نفوره لأية اتفاقية سلام تدعو الإسرائيليين إلى التنازل عن أراضٍ لصالح الفلسطينيين، واستعداده لتلوين النزاع بينهما بذات الفرشاة العريضة التي لوّنت "الحرب على الإرهاب"، يتناسب على نحو مريح مع رؤية الحكومة الإسرائيلية. وقبل شهرين من انعقاد المؤتمر الوطني الجمهوري في العام ٢٠٠٨، تحدَّث ماكين إلى "لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (AIPAC) في واشنطن، ووعد بزيادة المساعدات العسكرية للدولة اليهودية. وتلك المساعدات سوف "تضمن لإسرائيل الحفاظ على تفوقها العسكري النوعي" ضد أعدائها في المنطقة. وقد ظهر على الصفحة الأولى لموقع مؤسسة "صندوق كلاريون" الإلكتروني إقرار واضح لسيناتور ولاية أريزونا يقول فيه: "إن سياسات ماكين تسعى إلى مجابهة التطرف والإرهاب الإسلامي

الأصولي وهزيمته، في حين أنَّ سياسات (باراك) أوباما–رغم نيته بفعل الشيء ذاته– قد تؤدي في الواقع أن يكون الوضع تجاه الغرب أسوأ بكثير"[46].

وكانت القوة المحرِّكة وراء نشر فيلم "الهَوَس" منظَّمة تُدعى "الوقف من أجل حقيقة الشرق الأوسط" (Endowment for Middle East Truth)، وهي عبارة عن لوبي من جناح اليمين الذي ينظر إلى إسرائيل بوصفها "طائر كنارٍ في منجم فحم". ويقوم هذا اللوبي برصد "الإسلامي المتطرف" على طول الطريق الذي–"كلَّما حصل على مزيد من الأرض ببساطة أكثر، شحذ شهيته للمزيد في سعيه للهيمنة الإسلامية"[47]. وكان لدى سارة ستيرن Sarah Stern–مؤسِّسة الجماعة–علاقات وثيقة مع عدد من المنظمات والسياسيين الوطنيين المؤيِّدين لإسرائيل، ممن يعارضون حلَّ الدولتين بشدة، بما فيها "المنظمة الصهيونية في أمريكا" (Zionist Organization of America). ومن خلال عملها إلى جانب مجلس الديبلوماسيين الإسرائيليين السابقين والنشطاء المحافظين الجدد، قامت ستيرن بتنظيم هيئة للتوزيع التي–بالإضافة إلى قيامها بتوزيع صحف نهاية الأسبوع–تقوم بوضع نسخ من الفيلم على مكاتب صانعي السياسة النافذين في واشنطن. وقد أعلن موقع الجماعة على الإنترنت أنّ "جماعة 'الوقف من أجل حقيقة الشرق الأوسط' (EMET) قد أخذت على عاتقها توزيع نسخ من فيلم 'الهَوَس: حرب الإسلام المتطرِّف ضد الغرب'، إلى كل مكتب في مجلس الشيوخ"[48].

وعلى أية حال، فقد انكشفت في نهاية المطاف مكيدة تسويق جماعة "الوقف من أجل حقيقة الشرق الأوسط" (EMET). وقد حذَّرت التحريات المكثّفة لمخبري هيئة الانتخابات الفدرالية (FEC) من احتمال وجود انتهاكات لمبدأ عدم الربحية، ما دعا الجماعة إلى التوقف عن نشر الفيلم. ولكن أينما كفّوا، بدأ آخرون، خاصة الحركات المسيحية الصهيونية التي أدّى تشجيعها لأعمال التوسّع الإسرائيلية إلى إنشاء عدد من

أوجه التعاون مع جماعة "الوقف من أجل حقيقة الشرق الأوسط" (EMET). وبناء على طلب منظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل"–وهي فرقة إنجيلية متحمّسة أسَّسها راعي الكنيسة الكبير (وفيما بعد أيَّدها ماكين) جون هاجي–قام "التحالف اليهودي الجمهوري" Republican Jewish Coalition بإرفاق نسخ من الفيلم ضمن كتاب عنوانه "الوقوف مع إسرائيل" Standing With Israel جرى توزيعه بالبريد على ٢٠,٠٠٠حاخام وقائد أمريكي من المجتمع اليهودي[49]. وبعد أشهر، صدر منشور عنوانه "الرؤية المسيحية اليهودية" Judeo-Christian View، وكان عبارة عن منشور غامض لليمين المسيحي المؤيد لإسرائيل، الذين يَظهر هلعهم من الإسلام ويختفي عند كل موسم انتخابي (يعلن موقعهم الإلكتروني، المتوقّف حاليّاً، "عن قروض تجارية لأصحاب الائتمان السيّء")، حيث غمروا الكُنس اليهودية والكنائس بأكثر من ٣٢٥,٠٠٠ نسخة من هذا المنشور الجاهز المختصر، كما قاموا بتوفير عشرة ملايين نسخة أخرى إلكترونية.

ولكن كان لا بدّ من العمل السياسي في اللحظات الأخيرة لضمان فوز الحزب الجمهوري. وكان رجل المَهمَّة هو توم ترينتو Tom Trento، وهو صليبي معادٍ للمسلمين يتجاوز عمره الخمسين عاماً، وذو قصة شعر قصيرة من جانبي الرأس، ويرتدي النظارات الداكنة كالطيارين، ويلبس قميصاً يبرز العضلات، الأمر الذي يمنحه مظهر البطل الخارق من الجناح اليمين الذي لا يهاب شيئاً. وبوصفه صورة مصغّرة للعلاقة التكافلية بين الشبكات المختلفة التي تشكِّل صناعة الخوف من الإسلام، فقد كان ترينتو مسيحيّاً بروتستانتياً، وقائداً في حزب الشاي، ومدافعاً بارزاً عن إسرائيل. وقد وضعته حماسته النهمة لكل ما يعادي المسلمين في صلب كل مبادرة رئيسة تقريباً كانت تُعلن–كما صرّح مؤسّس الخوف من الإسلام دانيال بايبس ذات

مرة–أنّ "المسلمين قادمون، المسلمون قادمون!" وقد كان مؤلِّفاً مشاركاً لفريق ب ٢ تحت عنوان "الشريعة: التهديد لأمريكا"، كما ترأَّس جماعة "الغرب المتّحد" United West –وهي قاعدة شعبية تنشر تحذيرات واسعة النطاق ضد " قوى الظلام" التي يُقال إنها تتآمر ضد الولايات المتحدة. وكانت الجماعة امتداداً لمشروع الخوف الأول لترينتو–"مجلس أمن فلوريدا–وهي فرقة من النشطاء المحافظين ذوي المهام المتعددة تسعى لمكافحة "المخاطر الواضحة والماثلة" التي تتعرض لها ولاية فلوريدا على يد "المسلمين الأصوليين المتشددين والأكثر خطورة" الذين انضموا إلى حكام أمريكا اللاتينية المستبدِّين لخلق تهديد "غادر" وحديث[50].

ويعتقد ترينتو أنّ رجال الدين المسيحي واليهودي لم يُكملوا إنجاز المهمة عندما كان الأمر يتعلّق بمحاربة الإرهابيين، إذ لم تكن لديهم "الجرأة"، و"تنقصهم الشجاعة"، و"كانوا ضعاف التفكير"، وذلك حسب قوله. ويتساءل: "إذا كان رجال الله هؤلاء عاجزين عن إيجاد متحدّث عنهم في المسائل الثقافية المرتبطة بأمريكا في المقام الأول، فهل يظن أي شخص لديه عقل أنّ هؤلاء الناس يمكنهم التصدي للجهاديين الإسلاميين الذين روّضوا أنفسهم على الشهادة؟"[51] لقد بذلوا جهوداً جيدة في توزيع فيلم "الهَوَس"، لكن وصف الجهود بالجيدة أمر غير كاف، إذ يتطلب التهديد الكبير ردّاً كبيراً. ومع إنشاء البرنامج التعليمي للمواطنين "شاهدوا الهَوَس"، عزّز ترينتو حملة تسويق الفيلم إلى مستويات عليا جديدة، حيث يقاتل خطر المسلمين برّاً وجوّاً.

وقد رفرفت لافتة فوق السحاب تخفقها الرياح من خلف محرك طائرة في عدد من مدن الولايات المتحدة، وظهر عليها وجه أسامة بن لادن، مع كلمات تقول "شاهدوا فيلم الهَوَس". كما كان هناك لوحة إعلانية كبيرة بارتفاع ٤٨ قدماً نُصبت خارج مدينة ديترويت–موطن أحد أكبر التجمعات السكانية المسلمة في البلاد–كُتب

عليها رسالة باللون الأحمر الفاقع تحذِّر السائقين على الطريق السريع ٧٥ من التهديد الوشيك لقانون الشريعة الإسلامية. وقد امتدت هذه الصور على جوانب الشاحنات الكبيرة على طول الطريق السريع لتبدو أكثر إثارة، حيث يحدِّق بن لادن إلى الأسفل على المارة. وأشار ترينتو إلى أنَّ "الاستجابة إلى صورة بن لادن خلف الطائرة وعلى الشاحنات كانت لافتةً للنظر"، فقد كان "الناس يتوقفون تماماً في مسارهم، مصدومين من صورة عدو أمريكا الأول وهو ينظر إليهم من لافتة حملتها طائرة، أو من على جانب شاحنة"[52]. كما قام ترينتو بتوزيع أقراص دي في دي DVD لفيلم "الهَوَس" على مؤتمرات الترشيح للحزبين الديمقراطي والجمهوري، إذ قال متباهياً "لقد ذهبت شخصيّاً إلى "اللجنة الوطنية الديمقراطية" Democratic National Committee (DNC) لتقديم ٥٠,٠٠٠ نسخة كهدية جرى وضعها في حقائب"، حتى إنه زار فنادق وفود الجمهوريين لتوزيع الفيلم عليهم، وأضاف قائلاً: "أعتقد من وجهة نظري الشخصية أنَّ الجمهوريين يفهمون الفيلم أفضل بكثير من الديمقراطيين – وهم يعتقدون أنَّ المشكلة ليست مسألة تتعلق بالشرطة، وإنّما مشكلة عسكرية"[53].

* * *

لقد حفلت صناعة الخوف من الإسلام بالمُغالين في تأييد إسرائيل، ممن عملوا كمموّلين يضخون السيولة المالية في حسابات حملات الخوف المختلفة، ليغشوا بها العيون. كان سخاؤهم في غالب الأحيان عملاً صامتاً، يخلو من الاعتراف العلني، الذي يصاحب عادة مثل هذه الصدقات الكبيرة من الدولارات. وبحماية الطبقات البيروقراطية للجماعات الطليعية، كانت المساهمات تُمرَّر من الراعي إلى المروّج الدعائي بدهاء من النوع الذي يتوقع المرء أن يجده على طاولة قمار في تكساس، حيث غالباً ما يتركون أثراً ضئيلاً، أو لا يتركون أثراً على الإطلاق.

أمّا الجهة المموّلة لفيلم "الهَوَس"، فقد كان من الصعب تقفّيها، حيث ظلّت مؤسسة "صندوق كلاريون" متكتّمة حول مشروع الـ ١٧ مليون دولار، وعندما تعرّضت للضغط، قامت بالإفصاح عن أسماء مانحين على نحو متحفّظ مشيرة فيما بعد أنّ الأسماء مستعارة، إذ إنّ هويات المموِّلين الحقيقيين كانت محميّة. ومع ذلك، وقبل إطلاق الفيلم الثالث للشركة الذي حمل العنوان "إيرانيوم"، الذي يضجُّ بتهديد إيران النووي، حصل جاستن إليوت Justin Elliot–مراسل صحيفة "صالون"–على وثيقة قامت مؤسسة "صندوق كلاريون" بتسليمها لمصلحة الضرائب IRS، التي تبيَّن أنها تحلُّ اللغز. وقد ورد في سجل حسابات المساهمين اسم المانح "باري سيد" Barry Seid، الذي تبرَّع بما يقرب من ١٧ مليون دولار للشركة في العام ٢٠٠٨.

وعلى أية حال، لم يكن لشخصية باري سيد وجود، بل كان هناك شخص آخر يُدعى بار سيد Barre Seid، وهو رجل أعمال مُسِن من مدينة شيكاغو، كانت إمبراطوريته التي تصنِّع الوصلات الكهربائية تدرّ عليه ثروة تقدر بملايين الدولارات، حيث كان يتبرّع بجزء لا بأس به منها لتحقيق أهداف جناح اليمين المختلفة. لكن مُساعدة "سيد" كانت قد أنكرت على نحو قاطع احتمال وجود أية علاقة له بالموضوع، حيث أخبرت جاستن إليوت أنّ: "السيد سيد لم يقدّم أية مساهمات لتمويل 'صندوق كلاريون'، وتابعت قائلة: "إنَّ السيد سيد شخص مُنزوٍ جداً، ولا يسعى إلى الشهرة بكل أشكالها"[54].

لقد كانت تلك هي الحالة فعلاً، فقد بدا أنَّ مؤسَّسة "صندوق مانحي رأس المال" Donors Capital Fund–وهو "صندوق استشاري للمانحين" يقوم بتوزيع الأموال على منظمات حسب رغبات المانحين الأفراد–تخضع لذلك النوع من العلاقة السرية. وبحسب "مركز التقدّم الأمريكي" Center of American Progress، فقد سرَّبت

مؤسّسة "صندوق مانحي رأس المال" DCF ٢١ مليون دولار لتمويل جهات وقضايا معادية للمسلمين بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، من بينها "منتدى الشرق الأوسط" Middle East Forum، و"مشروع التحقيق حول الإرهاب" Investigative Project on Terrorism، و"مركز ديفيد هورويتز للحريات" David Horowitz Freedom Center.[55] وفي العام ٢٠٠٨، أي السنة التي أُطلق فيها فيلم "الهَوَس"، حوَّلت مؤسسة "صندوق مانحي رأس المال" منحة قدرها ١٧ مليون دولار–تكفي لتمويل حملة الفيلم كاملة – إلى مؤسسة "صندوق كلاريون"، لتجعل المجموعة المتلقّي الأكبر لسخائها. وأشارت ويتني بول Whitney Ball، رئيسة مؤسسة "صندوق مانحي رأس المال" قائلة: لقد "قدَّم أحد عملائنا توصية لـ"صندوق كلاريون"، ولذا قمنا بتنفيذها"[56]. وقد أشارت صحيفة "صالون" أنَّ تلك التوصية جاءت على الأرجح من "سيد" الذي تبرع لصالح "صندوق كلاريون" من قبل، بالإضافة إلى ضخ ثروته في عدة قضايا للمحافظين الجدد، وللهيئات الخيرية التابعة لجناح اليمين من مؤيدي إسرائيل. إلاّ أنّ رعايته لم تمرَّ من دون أن تُلاحظ، ففي العام ٢٠١٠، مُنح "سيد" درجة فخرية من ثاني أكبر جامعة إسرائيلية "اعترافاً بدعمه المستمر لإثراء الحياة اليهودية وتقدم دولة إسرائيل"[57].

وبالإضافة إلى سيد، قام رائد مشاريع مالية آخر من اليمين اليهودي باستخدام تأثير محفظته المالية الكبيرة لتمويل عمليات تشويه المسلمين. وقد كان أوبري تشيرنيك Aubrey Chernick–مطوّر برمجيات معروف على نحو محدود من مدينة لوس أنجلوس وراء عدد من أكثر الأعمال إثارة في صناعة الخوف من الإسلام، ففي العام ٢٠٠٤– عندما اشترت عملاقة الكمبيوتر آي بي إم IBM شركة تشيرنيك–ارتفع صافي ثروته ليصل إلى ٧٥٠ مليون دولار. وفي تلك السنة بالذات أنشأ أوبري وزوجته جويس "مؤسسة فيربروك" Fairbrook Foundation، وهي هيئة خيرية استخدمها الثنائي في

تحويل الأموال إلى جماعات تتفق معهما في الأجندة الإيديولوجية. وكان من بين تلك الجماعات موقع روبرت سبنسر الإلكتروني المعادي للإسلام "مراقبة الجهاد"، وهو ذات الموقع الذي وقف إلى جانب موقع باميلا جيلر "أطلس الاستهجان" الإلكتروني في إثارة ضجة حول إنشاء المركز الاجتماعي بارك ٥١ في مانهاتن. وقد سرَّب الزوجين تشيرنيك في العام ٢٠٠٥ ما يقارب من ٢٠٠,٠٠٠ دولار إلى سبنسر مباشرة، حيث أفادت صحيفة "بوليتيكو" أنّ "حصة الأسد" من مبلغ المليون دولار تقريباً التي موَّلت الموقع في السنوات الثلاث الأخيرة كانت قد جاءت إلى سبنسر عن طريق تبرعات قدَّمتها "مؤسَّسة فيربروك" للمجموعة الأم لموقع "مراقبة الجهاد"، وهو "مركز ديفيد هورويتز للحريات"[58].

لم يكن سبنسر المتلقِّي الوحيد لتبرّعات الثنائي تشيرنيك، فقد استفادت أيضاً من محاباتهما منظّمات أخرى، ممن أثارت المخاوف من "الشريعة الزاحفة"، ومن إراقة الدماء الشبيهة بالنّازية. وقد تبرعت "مؤسسة فيربروك" بين العامين ٢٠٠٤ و٢٠٠٩ بـمبلغ ١٢٥,٠٠٠ دولار إلى مؤسسة بريجيت غابرييل "اعملوا! لأجل أمريكا"، ومبلغ ٦٧,٠٠٠ دولار لـ "مركز السياسة الأمنيّة" العائد لفرانك جافني، ومبلغ ٤١٠,٠٠٠ دولار لـ "منتدى الشرق الأوسط" الخاص بـ دانيال بايبس[59]. وقد حقّقت جماعتا "نار التوراة" و"الصحافة الصادقة"-وهما الجماعتان الشقيقتان اللتان أنتجتا فيلم "الهَوَس"-مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دولار مجتمعة في نفس فترة السنوات الخمسة[60].

لم يكن دعم تشيرنيك المالي لمثل هذه الجماعات بلا داع. وفي الواقع، حصلت شركته الأمنية-أي "المركز الوطني لإدارة الأزمات واستمرارية التنسيق" National Center for Crisis and Continuity Coordination (NC4)- على مبلغ ٦,١ مليون من

وزارة الأمن الداخلي في العام ٢٠٠٧؛ بهدف تعزيز أساليب تواصلهم المتعلقة بعدد من الأحداث بما فيها الإرهاب. ولولا الحضور الملحوظ لمثل هذا التهديد الوشيك، لكانت مثل هذه التدابير–وهذه الدفعات–غير ضرورية. وقبل أربع سنوات، كان ريتشارد آندروز Richard Andrews–المدير البارز "للمركز الوطني لإدارة الأزمات واستمرارية التنسيق" (NC4)، وعضو اللجنة الاستشارية للأمن الداخلي في إدارة الرئيس جورج دبليو بوش–قد شَهِد أمام لجنة الحادي عشر من سبتمبر وحثَّ الحكومة الفدرالية على زيادة تعاونها مع الشركات الخاصة التي يمكن لخبراتها أن تعزِّز الأمن الوطني. وأشار آندروز قائلاً: "إنَّ المبدأ الأساس للمركز الوطني لإدارة الأزمات واستمرارية التنسيق يكمن في كون العصر الجديد لحقبة ما بعد ٩/١١ ضرورياً لبناء فرق جديدة تعمل معاً لتحقيق جهوزية جديدة من شأنها مواجهة حوادث الإرهاب أو الكوارث الطبيعية". وأضاف قائلاً: "ويقع في صميم تحقيق هذه الرؤية تعزيز الشراكات العامة أو الخاصة"[61].

وقد كان تمويل الدعاية ضد المسلمين في الولايات المتحدة هو أحد الأمور. أمّا الأمر الآخر، فقد كان يكمن في تمويل توسيع المستوطنات غير الشرعية في الضفة الغربية. وعلى أية حال، كان الزوجان تشيرنيك يعتقدان أنّ الأمرين متداخلان. وفي حين استمتعت كثير من الجماعات المؤيدة لإسرائيل بدعم الزوجين المالي، إلا أنَّ أيّاً منها لم تُظهر نظرتها اليمينية المتطرّفة كما فعلت جمعية "صندوق إسرائيل المركزي" Central Fund of Israel، ومؤسسة "أتيريت كوهينيم" Ateret Cohenim. ومن خلال هاتين المنظمتين غير الربحيّتين اللتين تقعان في مدينة نيويورك، فقد أرسل أوبري وجويس تشيرنيك عشرات الآلاف من الدولارات إلى مستوطنة "يتسهار" Yitzhar شمالي الضفة الغربية[62]. وكانت صحيفة النيويورك تايمز قد وصفتها ذات مرّة بأنها

"معقل المتطرِّفين على قمم التلال التي تسيطر على مدينة نابلس الفلسطينية"، فالأرض التي مزَّقتها الحروب كانت موقعاً لبعض أشرس المواجهات بين الفلسطينيين والإسرائيليين[63]. وفي شهر يناير (كانون الثاني) من العام ٢٠١٠، اعتُقل الحاخام يتسحاق شابيرا Yitzhak Shapira–مدير معهد عود يوسف تشاي Od Yosef Chai الذي يُعدُّ معهداً تعليميّاً متعصِّباً يقع على بعد ٢٠ كيلومتراً من الشريط الأخضر– بسبب إحراقه مسجداً في المنطقة[64]. وعندما كانت النيران تتصاعد في المبنى، شوهدت هناك عبارات على جدرانه كانت قد كُتبت في عُجالة، مثل: "سنحرقكم"، وسياسة "برايس تاغ" Price Tag أي "جماعة الرد بالمثل"[65]. ولم تكن تلك أولى المواجهات التي قام بها شابيرا، إذ أعلن ذات مرّة أنَّ غير اليهود، وحتى الأطفال منهم، كانوا "قساة بطبيعتهم"، حيث وضع لطلبته قواعد ينبغي عليهم اتِّباعها عند القيام بقتلهم[66]. وكان قد أخذ درسه في الصميم في العام ٢٠٠٦، عندما اعتقلته الشرطة الإسرائيلية بسبب تحريضه أتباعه من الشباب على ذبح جميع الفلسطينيين ممن كانوا فوق سن الثالثة عشرة[67]. وقد تدخَّلت الحكومة في نهاية المطاف، إلاّ أنَّ الهجمات المتكرِّرة التي شنَّها طلبة المدرسة المتطرّفة ضد أهداف فلسطينية وضدَّ قوات الدفاع الإسرائيلية، أدّت إلى حضِّ وزارة التربية والتعليم على إغلاق مدرسة "دورشي يهودتشا" Dorshei Yehudcha الثانوية[68].